

عبدية الإنسان لله تعالى في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

إعداد

الدكتور ساجد الرحمن الصديقي

الحمد لله وكفى والصلوة والسلام على حبيبه سيدنا محمد المصطفى. وبعد فقد اقتضت حكمة الله عز وجل، أن يخلق أشرف الخلق وأكرمها في الوجود، فخلق الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه، فجاء من أجل هذه النفحة الربانية مكرماً مختاراً مريداً، فكان طبيعياً من حيث خلقته المنفردة في الكون أن يكون له دور هام وعمل خاص يقوم به، وهو أن يكون عبداً لله باختياره وإرادته، بينما كانت الخلائق كلها منقادة لله مستسلمة له من دون اختيار لها ولا إرادة.

فالله هو الخالق، والخالق هو المالك، والمالك هو المتصرف في الأمور وفعال لما يريد، وإذا كان ذلك كذلك فهو المعبد بحق لا سواه، والإنسان هو العبد الخاضع له، الفقير إليه، الخانع الذليل أمامه، ومن هذا ظهر لنا أن العبودية حق قائم على الإنسان، وفرضية واجبة عليه، لا يستطيع القرار عنها، ولا يمكن له أن يرحب بما وجب عليه من حيث خلقته ومن حيث وجوده.

* - مشرف قسم التخصص في الدعوة والإرشاد بجامعة دار العلوم كراتشي.

الحاجة إلى بعثة الرسل والأنبياء

ولكن لما كان الإنسان بادراته وعقله لا يستطيع أن يعرف ما يجب عليه من واجبات العبودية وما يلزم عليه من فرائضها، أرسل الله إلى الناس بين الفترة والأخرى رسولاً يحمل من الله كتاباً يدعوهم إلى عبادة الله وحده يبشرهم وينذرهم، لنلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. كما يدل عليه قوله سبحانه:

﴿ رَسُّلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَئِلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾^١.

واستمرت الإنسانية في تطورها ورقائقها الفكري والوحي يتنزل بما يناسبها ويرشدتها إلى ما فيه خيرها وصلاحها، حتى اكتمل نضجها. وأراد الله لرسالة محمد ﷺ أن تشرق على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل؛ ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشرعيته الخالدة وكتابه المنزل عليه وهو القرآن الكريم.

"مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فاحسنـه وأجملـه، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعـت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتـم النـبـيـن" ^٢.

فكانـت بعـثـته - ﷺ - إـيـذاـناً بـانتـهـاءـ النـبـوـاتـ، وـإـعـلامـاً بـاخـتـتـامـ الرـسـالـاتـ، وـتـبـشـيرـاً بـإـكـمالـ الدـيـنـ، وـإـخـبـارـاً بـإـتـامـ النـعـمـةـ. ولـهـذا وجـبـ عـلـيـنـاـ التـأـسـيـ باـسـوـتـهـ الحـسـنـةـ وـالـاستـهـادـ بـهـدـيـهـ فـيـ أـمـورـ حـيـاتـنـاـ كلـهاـ، وـعـلـىـ الأـخـصـ ماـ يـتـعـلـقـ بـعـبـودـيـةـ العـبـدـ للـلـهـ تـعـالـىـ، عـمـلاـ بـقـوـلـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾^٣.

١- سورة النساء آية ١٦٥

٢- أخرجه البخاري ومسلم.

٣- سورة الأحزاب آية ٢١.

ومن وضع جبهته لله ساجداً، واقتدى بهدي الرسول ﷺ، في حياته كلها، فقد فاز فوزاً عظيماً. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ليكون المرء عبداً لله بالاختيار

ان الله سبحانه خلق الأرض ومن عليها، فقال لها ولأرض ائتها طوعاً أو كرها قالت أئتنا طائعين؛ قال تعالى موضحاً ذلك:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكُفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ مِنْ فُوْقَهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَئْتِنَا طَائِعِينَ ﴾^١.

خلق الله الكون كله وما فيه من الأشياء وال الموجودات، وقال لها كن فكانت وجلت على الطاعة والإتيان بالأمر طبعاً لا خيار لها فيه. وخلق الله الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه، قال تعالى:

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ ﴾^٢.

وقد كرمه بالروح العلوية التي أودعها بين جنبيه، وأعطاه من مواهب الروح والعقل والقدرة ما يمكنه من أعباء التكليف ما لم يعط أحداً من العالمين.

^١- سورة فصلت الآيات من ٩ إلى ١١.

^٢- سورة السجدة الآيات من ٧ إلى ٩.

عبدية الإنسان لله تعالى

إن الله تعالى خلق الإنسان وأعطاه كثيراً من الموهاب الفكيرية والعقلية والروحية ليكون عبداً لله بالاختيار حينما كان الكون كله وما فيه من الموجودات عبيداً لله بالاضطرار. وقد دلت على ذلك آيات كثيرة، منها؛ قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ مَنْ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾^١

وقوله سبحانه:

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا ﴾^٢

وقد خصَ الله تعالى الجن والإنس بعبديته، فقال عز من قائل:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ ﴾^٣

معنى العبادة

والعبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد، وبغير معبد؛ أي مذلل، وفي الشرع عبارة عن ما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.^٤ والعبادة أعلى مراتب الخضوع ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فعلها إلا لله تعالى لأنَّه هو المستحق لذلك، لكونه مولياً لأعظم النعم من الحياة والوجود وتوابعهما، ولذلك يحرم السجود لغيره سبحانه، لأنَّ وضع أشرف الأعضاء على أهون الأشياء وهو التراب وموطئ الأقدام والنعال غالية الخضوع.^٥ وقد روى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال جبريل لمحمد صلوات الله عليه ، قل: يا محمد إياك نعبد، إياك نوح ونخاف ونرجو يا

^١ - سورة الإسراء آية ٤٤.

^٢ - سورة مریم آية ٩٣.

^٣ - سورة الذاريات آية ٥٦.

^٤ - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤١/١.

^٥ - الآلوسي : روح المعاني ١/٨٦.

عبودية الإنسان لله تعالى

ربنا لا غيرك.^١ والعبودية هي اظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال ألا تعبدوا إلا إياه.^٢

العبادة والعبودية

ولا شك أن العبادة والعبودية مقام عال شريف، يدل على ذلك آيات كثيرة، منها: قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾^٣.

فأمر الله تعالى: محمداً ﷺ، بالمواظبة على العبادة إلى أن يأتيه الموت، ومعناه أنه لا يجوز الإخلال بالعبادة في وقت من الأوقات، وذلك يدل على غاية جلال أمر العبادة. ولما قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾^٤.

أمره بأربعة أشياء: التسبيح، والتحميد، والسجود، والعبادة، وهذا يدل على أن العبادة تزيل ضيق القلب، وتفيض انتراح الصدر، وما ذاك إلا لأن العبادة توجب الرجوع من الخلق إلى الحق، وذلك يوجب زوال ضيق القلب.^٥

ومنها قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾^٦.

^١- الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، ١٠٣ / ١.

^٢- الراغب الأصفهانى: المفردات، تحت كلمة عبد.

^٣- سورة الحجر الآيات من ٩٧ إلى ٩٩.

^٤- الرازى: التفسير الكبير ٢٥٤ / ١.

^٥- سورة الفاتحة آية ٤.

هذه هي الكلية الأساسية التي تتبع منها الشريعة بأسرها، فلا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله. وهذا هو مفرق لطريق بين التحرر المطلق من كل عبدية، وبين العبودية المطلقة للعبيد. وهذه الكلية تعن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل. التحرر من عبودية الأوهام. والتحرر من عبودية النظم المادية، والتحرر من عبودية الأوضاع. وإذا كان الله وحده هو الذي يعبد، والله وحده هو الذي يستعن، فقد تخلص الضمير البشري من استدلال النظم والأوضاع والأشخاص كما تخلص من استدلال الأساطير والأوهام والخرافات.^١

ومنها قوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^٢.

فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية صفة العبودية فقال: "أسرى بعده" لتقريرها وتوكيدها في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات العلي^٣، وروي عن أبي قاسم الأنصاري أنه قال: لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية، والمراتب الرفيعة، أوحى الله تعالى إليه يا محمد بم نشرفك؟ قال بحسبتي إليك بالعبودية، فأنزل الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

وقد ورد في الحديث: "قولوا عبد الله ورسوله".^٤

^١- سيد قطب : في ظلال القرآن ، ٢٥/١ .

^٢- سورة الإسراء آية ١ .

^٣- نفس المصدر: ٢٢١١/١٥ .

^٤- الآلوسي: روح المعاني، ٩-٤/١٥ .

أعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد به أعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله، لا لأحد سواه، وللهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد. ومعنى التوحيد أن يعلم الإنسان أن لا إله إلا الله، وأن يفرده تعالى بالعبادة والاستعانة، فلا يشرك به أحداً، ولا يشرك معه شيئاً. وهذا معنى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^١.

التي يرددتها المسلم في صلواته مرات لا يقل عن سبع عشرة مرة، كلما قرأ فاتحة الكتاب في كل ركعة من ركعات الصلاة.^٢

الفراغ في فطرة الإنسان

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله عز وجل. وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتتوتر والجوع والظماء، حتى تجد الله وتؤمن به، وتتوجه إليه.

وذلك لأن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله. وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفارار إليه. وفيه نيران حرارات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه. وفيه فاقة لا يسددها إلا محبته والإنابة إليه، ودوم ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً.^٣

^١- سورة الفاتحة آية ٤.

^٢- يوسف القرضاوي، الدكتور: *الخصائص العامة للإسلام*، ص ٣٨.

^٣- يوسف القرضاوي، الدكتور: *الخصائص العامة للإسلام*، ص ١١.

أصلين كبيرين في مجال العبادة

والعبدات الإسلامية أعني الشعائر التي يتبعها الإنسان بها الله تعالى عبادات ربانية. فالوحى الإلهي هو الذي رسم صورها، وحدد أشكالها، وأركانها وشروطها، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان، ومكانها في ما يشرط فيه المكان.

فإِلَّا سُلْطَانٌ لِمَنْ يَرِيدُ
فِي الْعِبَادَةِ إِلَيْهِ الْمُنْتَهَى

الأول: أن العبادة لله وحده، فلا عبادة لأحد سواه، كائناً ما كان.

الثاني: أن لا يعبد الله إلا بما شرعه. وهو ما جاء به محمد ﷺ من طرق العبادات. فالعمل المقبول له ركنان:

- أن يكون خالصاً لله تعالى.
- أن يكون على سنة رسول الله.

وال العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له، حتى تكون محبًا خاضعاً. ولا يكون العبد متتحققاً بروح العبادة وقوامها إلا بأصلين عظيمين. أحدهما متابعة الرسول ﷺ. والثاني الإخلاص للمعبود.

أربع قواعد

وال العبادة مبنية على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح. فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع.

وإنه لمن ميزات الدين الإسلامي أنه دين قائم على العلاقة الوثيقة بين العبد وربه، وأنه لا بد للمؤمن الواثق بربيه أن يكون دائمًا على صلة به؛ يدعوه تضرعًا

عبدية الإنسان الله تعالى

وخيفة، ويناجيه رغبة وريبة. وهذا الأمر لا يتأتى إلا بالاقتداء بالرسول والتأسي بالحسن به في أخلاقه وشمائله وتعبده للخالق الواحد وحبه العميق لله رب العالمين.

ولما كان لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، رأينا أنه من الخير لنا أن نقدم في هذا البحث قبضات من سيرة الرسول ﷺ يتجلى منها بوضوح طريق العبادة ومسارك العبودية لله تعالى.

عبدية محمد ﷺ

إن نبينا محمدًا ﷺ نشأ عابداً منذ أدرك سن التمييز، فكان عقله في الله تعالى يفكر كيف يعبده، ثم يجد في التفكير في خلق الله تعالى عباده، ليصل إلى إدراك ربه. وكانت كل أعماله ﷺ قبلبعثةٍ وبعدها لإرضاء الله تعالى، فهو يخلق الناس بخلق حسن، وكان الصادق في قوله والأمين معهم في معاملته إياهم، وقد صار قلبه المعلق بالله الخاضع الخانع، لا يرى في الوجود إلا الله تعالى، ولا يحسب أنه إلا القانت له الخاضع، فصار كلُّه لعبادته، قلباً ولساناً و عملاً وخلفاً. وكل شيء في الوجود يذكره بالله، وكلما رأى أمراً من الخلق ذكر ربه، وكلما رأى النعم في الوجود تذكر الخالق.^١

ولقد كان محمد ﷺ يعلن أن التفكير في الله وآله وخلفه أساس العبادة، وأنه لا عبادة من غير معرفة الله تعالى. ولقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سالت رسول الله ﷺ، عن سنته، فقال المعرفة رأس مالي، والحب أساسى، والشوق مركبى، وذكر الله أئسى، والثقة بالله كنزي، والحزن رفيقى، والعلم سلامى، والصبر ردائى، والرضا غنيمتى، والعجز فخري، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسيبي، والجهاد خلائى، وقرة عينى في الصلاة.^٢

^١- أبو زهرة : خاتم النبيين ، ٢٧٧/١ .

^٢- القاضي عياض اليحصبي : الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، ص ١٤٧ -

وقد كان رسول الله ﷺ قد حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فیتحنث فيه وهو التعبد - الليلي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتنزد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فیتنزد لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء.^١

هذه صورة صادقة من عبادته ﷺ قبلبعثة، وهي تدل على أنه كان قواماً لله تعالى طالباً مرضاته، وكان يعرف تمام المعرفة، أن ملة إبراهيم - قامت على الفطرة السليمة، والحنيفية السمحاء، فاختارها وسلك سبيلاً.

وإن لهذه الخلوة التي حببت إلى قلب رسول الله ﷺ قبلبعثة، دلالة عظيمة جداً، على أن العبد مهما كان متحلياً بالفضائل قائماً بألوان العبادات، من المستحسن له أن يجمع إلى ذلك ساعات من العزلة والخلوة، يحاسب فيها النفس، ويراقب ما أبدع الله تعالى من الآيات البينات الباهرة في النفوس والآفاق، ويفكر في مظاهر الكون، ودلائل ذلك على عظمة الله تعالى.

إن للنفس آفات

وحكمة ذلك أن للنفس آفات، لا يقطع شرتها إلا دواء العزلة عن الناس، ومحاسبتها في نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها. فالكبر، والعجب، والحسد، والرياء، وحب الدنيا، كل ذلك آفات من شأنها أن تحكم في النفس وتتغلغل إلى أعماق القلب، وتعمل عملها التهديمي في باطن الإنسان، على الرغم مما قد يتحلى به ظاهره من الأعمال الصالحة والعبادات المبرورة. وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يختلي صاحبها بين كل فترة وأخرى مع نفسه ليتأمل في حقيقتها ومنشئها ومدى حاجتها إلى عنابة الله وتوفيقه في كل لحظة من لحظات الحياة.

^١ - البوطي، محمد سعيد رمضان: فقه السنة، ص ٦٠.

عبدية محمد ﷺ بعد البعثة:

وقد دنا رسول الله ﷺ ، بعد بعثته الشريفة، إلى الله تعالى بقلبه الطيب المخلص، وباتصال الوحي به دوماً، من غير انقطاع، فكان بذلك أعبد خلق الله تعالى، وكلما ازداد علمًا بالله وشرعه ازداد عبادة وخوفاً من الله وإرضاء له، وقد روي في الصحيح للبخاري:

"أن النبي ﷺ قام حتى تورّمت قدماه. فقيل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال أفلأكون عبداً شكوراً؟^١، وفي الصحيح للبخاري أيضاً عن علامة، لعائشة رضي الله عنها : 'هل كان رسول الله ﷺ يختص من الأيام شيئاً. قالت: لا كان عمله ديمة وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق'.^٢

ومعنى الديمة في الحديث أنه يحب الدوام على العبادة، وذلك لأن استدامه العبادة، ولو كانت قليلة، يجعل المؤمن في ذكر دائم لله تعالى لا يغيب عنه فهو في قلبه دائماً.

وكان ﷺ يقوم الليل طويلاً، فإذا قام وصلى استفتح بالبقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف، فتبسم ولا يمر بآية عذاب إلا وقف، فتعود ثم رکع فيما يقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملائكة والكربلاء والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك.^٣

عن حذيفة بن اليمان أنه صلى مع رسول الله ﷺ، قال فلما دخل في الصلاة قال الله أكبر ذو الملائكة والكربلاء والعظمة. ثم قرأ البقرة ثم رکع فكان رکوعه نحوً من قيامه وكان يقول سبحان رب العظيم، سبحان رب العظيم، ثم رفع

^١ - صحيح البخاري، التفسير، ص ٨٥٨.

^٢ - صحيح البخاري، الصوم، ص ٤٢٠.

^٣ - القاضي عياض: الشفاء، ص ٢٠.

رأسه، وكان قيامه نحواً من ركوعه، وكان يقول لربِي الحمد، لربِي الحمد، ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول سبحان ربِي الأعلى، سبحان ربِي الأعلى، ثم رفع رأسه، فكان ما بين السجدين نحواً من السجود، وكان يقول ربِي أغفر لي، ربِي اغفر لي، حتى قرأ البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة.^١

التفكير في آلاء الله تعالى

ومع دوامه على العبادة التي وصفها القرآن، كان دائم التفكير في آلاء الله والتأمل في خلقه ليدرك عظمته وكمال سلطانه، فلم ينقطع عن عبادة التفكير التي ابتدأ بها قبل أن يوحى إليه، ولقد قال هند بن أبي هالة : 'كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكر ليست له راحة'.

ولقد كان سيد العابدين ﷺ، يحسن عبادته بالاستغفار حتى لا يكون منه من الاستكثار.^٢

التضرع والخشوع في الدعاء

وكان رسول الله ﷺ، يدعو الله تعالى خاشعاً متضرعاً ويناجيه رغباً ورهباً. ولما أراد أن يترك قريشاً ويتوجه بدعوه إلى غيرهم عزم أن يسافر إلى الطائف، والمسافة بين مكة والطائف ليست مسافة سهلة، فهي تزيد على مائة وعشرين ميلاً، يقطعها الراكب في نحو أربعة أيام بين جبال وعرة ووهاد مفقرة، وقد آثر رسول الله ﷺ، أن يقطع هذه المسافة مأشياً؛ وقد تحمل هذه المشقة لأنه كان يريد أن يكون سفره هذا خفية ولا تتبه قريش إليه.

^١ - الترمذى، أبو عيسى: الشمائل المحمدية، ص ١٦٧.

^٢ - أبو زهرة: خاتم النبيين، ١/٢٨٢.

ولما انتهى رسول الله، ﷺ، إلى الطائف عمد إلى نفر من سادات ثقيف، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله، فردوا عليه رداً منكراً، وفاجئوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمح القول. فقام رسول الله ﷺ، عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً. ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيرون به، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماء الشريفان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه عدة شجاج. وأضطره المطاردون أن يلجا إلى بستان لعيبة بن ربعة فرجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، ثم عمد عليه الصلاة والسلام، وقد أنهكه التعب والجرح، إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه وابنا ربعة ينظران إليه. فلما أطمأن النبي ﷺ، في ذلك الظل رفع رأسه يدعو ربها بهذا الدعاء:

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي و هواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعود بنور وجهك أشرقت له الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك." ^٢

وقد أكثر رسول الله ﷺ الابتهاج والتضرع والدعاء يوم بدر ويقول فيما يدعوه: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تبعد بعدها في الأرض". وجعل يدعو ربها في ضراعة وابتهاج: "اللهم أجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك، ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه، وجعل أبو بكر يتزمه من ورائه ويُسوي عليه ردائه". ^٣

^١ - محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٠.

^٢ - إسماعيل بن كثير: السيرة النبوية ٢/١٥٠.

^٣ - أبو زهرة: خاتم النبيين ٢/٧٥٣.

عبدية الإنسان لله تعالى

وكان النبي ﷺ يطمئن بأن النصر لهم، حتى كان يشير إلى أماكن متفرقة في الأرض ويقول: 'هذا مصروع فلان' ولقد وقع الأمر كما أخبر؛ فما تزحزح أحد في مقتله عن موضع يده كما ورد في الحديث.

ومع ذلك فقد رأينا يقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له، يجأر إلى الله تعالى داعياً ومتضرعاً، باسطاً كفيه إلى السماء ينشد الله عز وجل أن يؤتى به النصر الذي وعد حتى سقط عنه ردائه وقال أبو بكر: 'كفى يا رسول الله إن الله منجز لك ما وعد'.

الإيمان بالفوز والنصر

أما اطمئنان النبي ﷺ، وإيمانه بالنصر، إنما كان تصديقاً للوعد الذي وعد الله به رسوله، ولا شك أن الله لا يخلف الميعاد. وأما الاستغراق في التضرع والدعاء وبسط الكف إلى السماء، فذلك هي وظيفة العبودية التي خلق الله تعالى لأجلها الإنسان.

فالفوز والنصر والنجاح لا يأتيهما توفرت الوسائل والأسباب إلا من عند الله وتوفيقه، والله عز وجل لا يريد منا إلا أن تكون عبيداً له بالطبع والاختيار، وما تقرب متقرب إلى الله بصفة أعظم من صفة العبودية، وما استأهل إنسان بواسطة من الوسائل استجابة دعاء من الله تعالى، كما استأهل ذلك بواسطة ذل العبودية يتربى ويتبرق به بين يدي الله تعالى.

الحكمة في الابلاء

أما أنواع المصائب والمحن المختلفة التي تهدد الإنسان في هذه الحياة أو تنزل به، فما هي إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته، وتصرف آماله وفكرة إلى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته، كي يفر إلى الله سبحانه وتعالى ويبسط

عبودية الإنسان لله تعالى

أما ماه ضعفه وعيوبه، ويستجير به من كل فتنه وبلاء، وإذا استيقظ الإنسان في حياته لهذه الحقيقة وانصبغ سلوكه بها، فقد وصل إلى الحد الذي أمر الله عباده جميعاً أن يقفوا عنده وينتهوا إليه.^١

والدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾^٢.

والله هو الموفق لما يحبه ويرضاه.

^١ - البوطي: فقه السنة، ص ١٦٤.

^٢ - أي عن دعائي.

^٣ - سورة غافر آية ٦٠.

حقوق المرأة في ظل المتغيرات المعاصرة

إعداد

الدكتور سيد الأمين السلطاني *

تعد الأسرة أقدم وأهم المؤسسات الاجتماعية التي عرفها الإنسان، وليس الأسرة أساس وجود المجتمع فحسب؛ بل هي مصدر الأخلاق والداعمة الأولى للتربية النشء والمحافظة على قيم المجتمع ومبادئه الثابتة. والأسرة المسلمة تستند حياتها من قيم الشريعة الإسلامية، ولذا كانت وما زالت حجر الأساس في كل تطور اجتماعي يشهده المسلمون، ومصدر قوتهم ووحدتهم، والظاهرة التي تميزهم عن بقية الشعوب.

وأعداء الإسلام عند ما بدؤوا هجمتهم ضد بلاد المسلمين، كثروا جهودهم في تحطيم كيان الأسرة وتفكيكها، موقنين أنه بانهدامها ينهي المجتمع، وتتفاكم أواصرها، ويدبّ الضعف والخور بين أفرادها، والمسلمون ردوا كثيراً من تلك الهجمات والحملات في القرون السالفة، إلا أن بعد المسلمين عن دينهم في القرنين الأخيرين مكن أعداء الإسلام من التسلل منهم من لا عظيماً من خلال حملات التشويه، ونشر الأفكار الهاابطة، وإشاعة الفاحشة، وزرع الشبهات المضلة.

* - مدير تحرير المجلة.